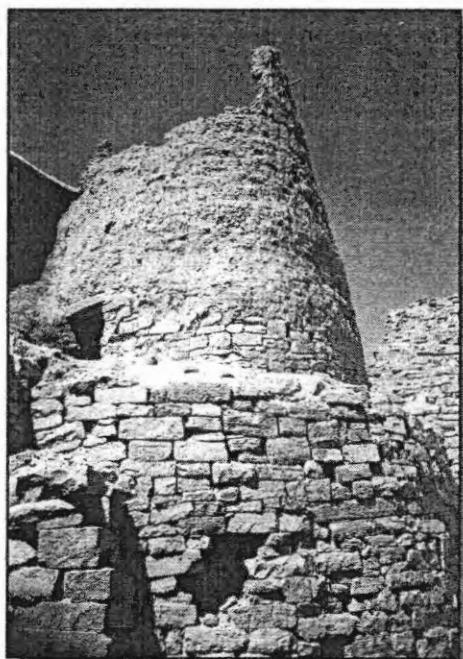


الفصل الأول

امرؤ القيس ..

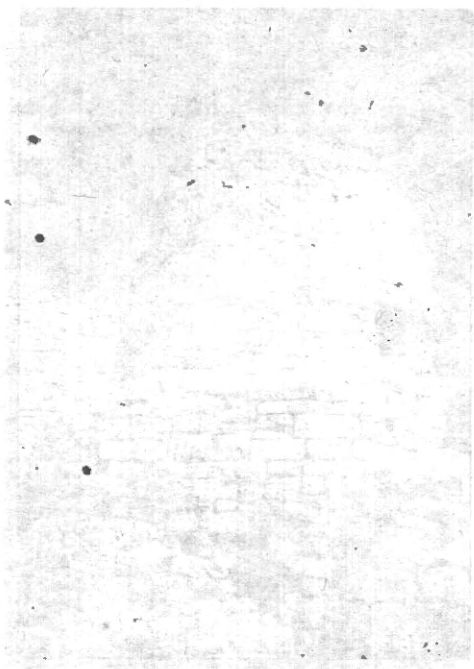
دراما الشاعر الضليل



راوڈا راجا

راجا راجا

راجا راجا راجا



من أين أنت الرياح بامرئ القيس إلى هنا، فى دومة الجندل وتيماء؟! من الحيرة
حيث موطن كندة الأول وقبيلة كلب...؟ أو من جلاجل المتاخمة للرياض الآن والتي
ذكرها فى معلقته الشهيرة:

ألا رُبَّ يومٍ لكَّ منهمَّ صالحٌ ولاسيما يومُ بدارةٍ جلجلٍ

.. وأى ريح ألقى به فى متاهة الترحال بعدما طرده أبوه حجر بن الحارث
ابن عمرو بن مرتع الكندى، ليطلب الصيد والغزل والندامى والليالى التى لا ينتهى
فيها وصال...؟!

هل هى حفاقة الشعراء حين وقف فى طريق عُنيزة أو (فاطمة) ابنة عمه شرحبيل
وظل يطاردها بغزلياته الفاضحة، أو كما ذهب بعض رواة العرب من أنه انتظر
خروج الحى ليتخلف عن الرجال ويسبق النساء إلى غدير دارة جلجل ويستخفى،
حتى إذا وردت العذارى وفيهن عُنيزة «أو فاطمة» ونضون ثيابهن

وشرعن فى الانغماس فى الماء ظهر ليجمع الثياب ويجلس عليها ثم حلف
ألا يدفع إليهن الثياب إلا بعد أن يخرجن إليه «على حالهن» فلما رفضن أبى
إلا إبرار القَسَم لتخرج أوقحن فيدفع إليها بثيابها ويتتابعن إلا عُنيزة التى أقسمت
عليه، ليقول لها: يا ابنة الكرام لا بد أن تفعلنى مثل ما فعلن، فتخرج إليه ويشبع
عينيه منها مقبلة ومدبرة، ولا ينسى ذبح راحلته لهن ليُطعمن، ولا ركوة الخمر
ليُسقين، حتى إذا كان طريق العودة ألح على عُنيزة أن تحمله على مقدم هودجها
فوافقت فكان يدخل رأسه ويخرجها وهو بين لثم وشم:

ويوم دخلت الخِذَر خدر غُنيزة فقالت لك الوليات إنك مُرْجلى

.. أكانت تلك الحماقة سبباً في طرده من الحى أو مقتل أبيه على يد بنى أسد وبنى كاهل ليقول ساعتها «ضِيعنى صغيراً وحملنى ثأره كبيراً، لا صحو اليوم، ولا سُكر غداً، اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ» وأصبح لقبه المقصور (أى الذى اقتصر على ملك أبيه) وكُنّى أبو وهب كما قيل له الملك الضليل وذى القروح.

.... ربما كان طلب الثأر وطرده هما ما أوصلاه إلى دومة الجندل التابعة الآن لمنطقة الجوف شمال السعودية والتي يحدها من الشمال والشمال الشرقى إمارة الحدود الشمالية ومن الشمال الغربى إمارة القريات التى كانت ضمن إمارة الغرب، ومن الغرب ومن الجنوب والجنوب الشرقى إمارة تبوك.

كانت تلك المنطقة منذ قديم، أهم معبر للجزيرة العربية يربطها بنطاق ممتلكات الإمبراطوريات العريقة فى بلاد الشام والعراق وفارس وما تقوم عليه تلك الإمبراطوريات من حضارات تضرب جذورها فى أعماق التاريخ.

... قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان: إن اسمها مستمد من اسم دوماء ابن النبى إسماعيل عليه السلام وأنه لما كثر أبناء إسماعيل فى تهامة على البحر الأحمر غادرها دوماء إلى أن وصل إلى الموقع الحالى لدومة الجندل حيث ابتنى لنفسه قلعة سميت باسمه (قلعة دومة الجندل) أما عن إضافة كلمة الجندل فيقول الحموى: إن السبب هو بناء القلعة من الجندل أى من الصخر.

فى روايات أخرى مشابهة اشتق بعض المؤرخين العرب اسم «دومة» من دوم وتكتب أحياناً: دومان فيما يقول المستشرق «إلواس موسيل» فى كتابه «شمال الحجاز» أن «جندل» كان اسم قبيلة بدوية قديمة سكنت دومة وكان يطلق عليها الجندل أو بنى جندل «وذكر ذلك أيضاً الشيخ عبدالرحمن السديرى فى كتابه «الجوف - وادى النفاخ».

.. والمصادر الرومانية والبيزنطية أشارت إلى دومة بأسماء مختلفة مثل دوماتا، دوميثا أو دوماتا لكنها لم تعط تفسيراً لدلالة الاسم بينما تتحدث النصوص الآشورية عن دومة الجندل كعاصمة لعدد من الملكات العربيات منهن زبيبة وسمسى وأياتى

وتلخونو التي تصفها تلك النصوص بأنها كانت كاهنة الآلهة «دلبات» وكان الناس في الدومة يعبدونها ويلقبونها بـ «اثار سامين» (وكانت تعرف باسم «عشتار» في بلدان أخرى).

ويشير التاريخ إلى دومة الجندل في القرن الثالث الميلادي في عهد الملكة العربية الشهيرة «زنوبيا» التي حكمت تدمر بين سنتي ٢٦٧ - ٢٧٢م ويقال: إن هذه الملكة غزت المدينة لكن قلعتها كانت حصينة حيث لم تتمكن من اقتحامها فارتدت خائبة وقالت قولتها الشهيرة «تمرد مارد وعز الأبلق» ومارد هذا هو قصر مارد (القلعة) في الدومة بينما قصر الأبلق المشهور في تيماء وفي هذا ما يدل على أن المكان واحد وإن اتسع.

ولكن الديار عَفَتْ وَدَرس «محلها فمقامها» - على حد تعبير ليبيد بن ربيعة - ولم يبق من المكان إلا رائحة التاريخ.. وإلا الطريق إلى امرئ القيس.. الطريق الذي بليت عليه من قبل نعال الشعراء والغاوين..

... ما الذي حدث هنا؟!..

وما الذي حول الملك الضليل من عاشق يلهث وراء الزق والحسان إلى مُغيّر على قبائل شمالي الحجاز ليبسط سلطانه عليها..

أتراه الطراد الأول الذي حوله إلى عاشق للصولجان قدر عشقه للملاح، أو تراها درامية الحياة ذاتها التي عاشها أو أنه أراد أن يثبّت ملكاً لنفسه ولحفدته من بعده؟!..

لا شيء قطعاً، ولا أثر يدل على ما حدث خاصة وأن أخباره وهو ابن حجر الكندي قد اختلطت في ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخمي وبينهما في ذلك اختلاف واسع.

كانت منازل قومه بنى أسد، وفي رواية أخرى: قُرب تيماء في شمال الحجاز وذكر ذلك في شعره:

وتيماء لم يُترك بها جذع نخلة ولا أجمأ إلا مشيداً بجندل
كأن ثبيراً في عرانيّين وبله كبير أناسٍ في بجادٍ مَزَلٍ

كما ذكر حامر وهو موضع فى ديار غطفان عند أزل من شَرْبَةِ (وهما موضعان)،
 وديار غطفان بقرب تيماء إلى الجنوب منها و «أَبَان»: جبل يقال: إنه قريب من
 وادى الرمة الذى ينحدر من مرتفعات المدينة المنورة صوب القصيم وهو أعظم أودية
 نجد ففي الشمال وادى الرمة وفى الجنوب وادى الرشاء وكلها بنجد وأعلى وادى
 الرمة بالحجاز.

وذهب الباحث السعودى حمود ضاوى القثامى فى كتابه «الحجاز» إلى أن امرأ
 القيس أدرك تيماء قريباً من «قَطْنَا» وهو بئر ماء بناحية «فيد» جنوب تيماء كما أن
 «قَطْنَا» أيضاً جبل من أرض الشرق:

على قَطْنَا بالشِّبِّمِ أَيْمَنَ صَوْبِهِ وَأَيْسَرَهُ عَلَى السَّتَارِ فَيَذْبَلُ
 فَأُضْحَى يَسُحُّ الْمَاءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ يَكْبُ عَلَى الْأَذْقَانِ دَوْحَ الْكَنْهَبِلِ

والسَّتَارُ جبل بأجا فى الشرق من تيماء، فهو يذكر أن المطر بعد مروره على تيماء
 اتجه إلى الشرق، فأيمنه بواى الرمة جنوباً وأيسره بناوحى حائل شمالاً شرقياً.
 تيماء إذن كانت إحدى الحواضر التى تثير مطامع القادمين مع الريح أمثال الملك
 الضليل الباحث عن مُلْكٍ وسلطان...!!

زارها الشيخ حمد الجاسر^(*) وكتب أن مؤرخى العرب يذكرون أن أول من نزل
 تيماء هم العمالقة الذين يشاهدون لها آثاراً قوية فكان اليمامة القدماء عندهم طسم
 وجديس من العمالقة وسكان المدينة بنوهف وبنو مطر وغيرهم من العمالقة أيضاً،
 وسكان مكة قبل أبناء إسماعيل من العمالقة وسكان فلسطين الذين وصفهم الله فى
 القرآن الكريم بأنهم قوم جبارون من العمالقة أيضاً وفراعنة مصر من العمالقة..
 ويظهر أن العمالقة هى الأمم القوية المجهولة التى خلفت آثاراً عمرانية فى البلاد
 التى سَكَنَتْ، أما محاولة جعلها قبائل ذات أنساب متصلة فهى أقرب إلى طرق
 القصاصين من تحقيقات الباحثين.

وأورد الشيخ حمد الجاسر ما جاء فى الكتب القديمة فقال: قال صاحب كتاب
 «الروض المعطار»: وكانت أمة من العمالق نزلوا فى قديم الزمان الحجاز وكان

(*) يلقب بعلامة الجزيرة العربية، باحث سعودى معروف.

ملكهم بتيماء يقال له الأرقم بن أبي الأرقم فسكنوا مكة والمدينة والحجاز وعتوا عتواً كبيراً فلما أظهر الله عز وجل موسى عليه السلام على فرعون وأهله وجنوده ووطئ الشام وأهله بعث بعضاً من بنى إسرائيل إلى الحجاز وأمرهم ألا يستبقوا منهم أحداً بلغ الحلم، فلما أظهرهم الله عليهم فقتلهم حتى انتهوا إلى ملكهم بتيماء الأرقم بن أبي الأرقم فقتلوه وأصابوا ابناً شاباً له فضنوا به عن القتل وقالوا نتركه حتى نقدم به على رسول الله (موسى) فيرى فيه رأيه فأقبلوا به وقبض الله موسى عليه السلام قبل قدوم الجيش، فلما سمع بهم الناس تلقوهم فسألوهم عن أمرهم فأخبروهم بفتح الله عليهم وقالوا: إنا لم نستبق منهم أحداً إلا هذا الفتى لنقدم به على نبي الله موسى فيرى فيه رأيه فقالت لهم بنو إسرائيل إن هذه لمعصية منكم لما خالفتم أمر نبيكم، والله لا تدخلوا علينا أبداً، فحالوا بينهم وبين الشام فقال الجيش بعضه لبعض إن منعم بلدكم فخير منه البلد الذى قدمنا منه، وكانت الحجاز إذ ذاك أشجر بلاد الله تعالى وأظهره ماء فكان هذا أول سُكنى اليهود الحجاز فكانوا بزهرة بين السافلة والحرّة ونزل جمهورهم (معظمهم) بمكان يقال له يثرب بمجمع سيول بطحان والعقيق وسيل قناة مما يلي زغابة.

ونعرف من الوثائق الآرامية القديمة التى عُثر عليها فى تيماء كيف قامت هناك مستعمرة آرامية تجارية حوالى القرن الخامس قبل الميلاد.

ويذكر عادل عياش أن الملك البابلى نابونيد غزا تيماء سنة ٥٥٢ قبل الميلاد فاستولى عليها بعد قتل أميرها وأهلك مواشى المنطقة كلها ثم أقام فى مدينة تيماء وبنى لنفسه قصراً على غرار قصره فى بابل وجعل المدينة وبنى الأسوار لتحسينها.

وورد اسم تيماء فى جغرافية بطليموس وهو يقصد واحة تيماء وفى التوراة أن واحة تيماء كانت تابعة لقبائل من بنى إسماعيل أو لغيرها من ولد إبراهيم من زوجته قطورة وجاء فى التوراة أن سكان تيماء كانوا يشتغلون بالتجارة وكانت لهم قوافل تجارية.

لا غرو إذن في أن يسيل لعاب امرئ القيس المغامر في الفيافي وجموح الارتحالات والذي أشارت المصادر التاريخية اليونانية على أنه «امرؤ القيس»: الذي كان من العرب التابعين لمولوك الفرس والذي بسط سلطانه على قبائل شمال الحجاز ثم استولى على جزيرة يوتابه «جزيرة تيران - الآن» الواقعة في مدخل العقبة وطرد منها عمال المكوس (الضرائب) من الروم.

ولكن التقلبات السياسية السائدة في عصره جعلته يصانع الروم مخافة غزوهم له فأرسل إلى بيزنطية أسقف العرب الذين خضعوا لحكمه سنة ٤٧٣ للميلاد ليفاوض قيصر في أن يعينه حاكماً على جنوبى الشام (الأردن حالياً)، وساحل خليج العقبة ويمنحه لقب فيلارك (أو فيلارخ) ونجح الأسقف في سفارته ودعا القيصر امرأ القيس لزيارة عاصمته وبالفعل في إكرامه ثم عاد إلى بلاده.

لكن ترجمة الزوزنى «المتوفى عام ١٠٩٣» لسيرة امرئ القيس تذكر أنه بعد أن حمل على بنى أسد وبنى كاهل وهم قتلة أبيه، حاربه المنذر وألب عليه العرب فانهزم إلى أن وصل إلى ديوان القيصر، وبعد رحيل المنذر وأوغر الحساد صدر القيصر بأن قالوا له: إن امرأ القيس ذكر أن ابنتك عشقته وأنه كان يواصلها وهو قاتل في ذلك شعراً يشهرها به في العرب ويفضحها فبعث قيصر إليه حينئذ بحلة منسوجة بالذهب أودعها سماً قاتلاً إلى أن توفي في بلدة الفترة ودفن هناك».

وذكر جواد على أن امرأ القيس غادر دياره لسبب لا نعرفه إلى الأرضين الخاضعة لنفوذ الرومان وأخذ يغزو الأعراب حتى هابته القوافل فتوسع نفوذه وامتد إلى العربية الصحرية واستولى على جزيرة «تادان - TOTABA» وترك رجاله يجوبون له الجباية من السفن القادمة من الهند حتى حصل ثروة كبيرة واتصل عام ٤٧٣م بالقسطنطينية فعينه القيصر «ليون» عاملاً على الأعراب الخاضعين لنفوذ الروم مقابل دخوله في حلف معهم ثم دخل دين النصرانيين فممنحه القيصر لقب «فيلارخ».

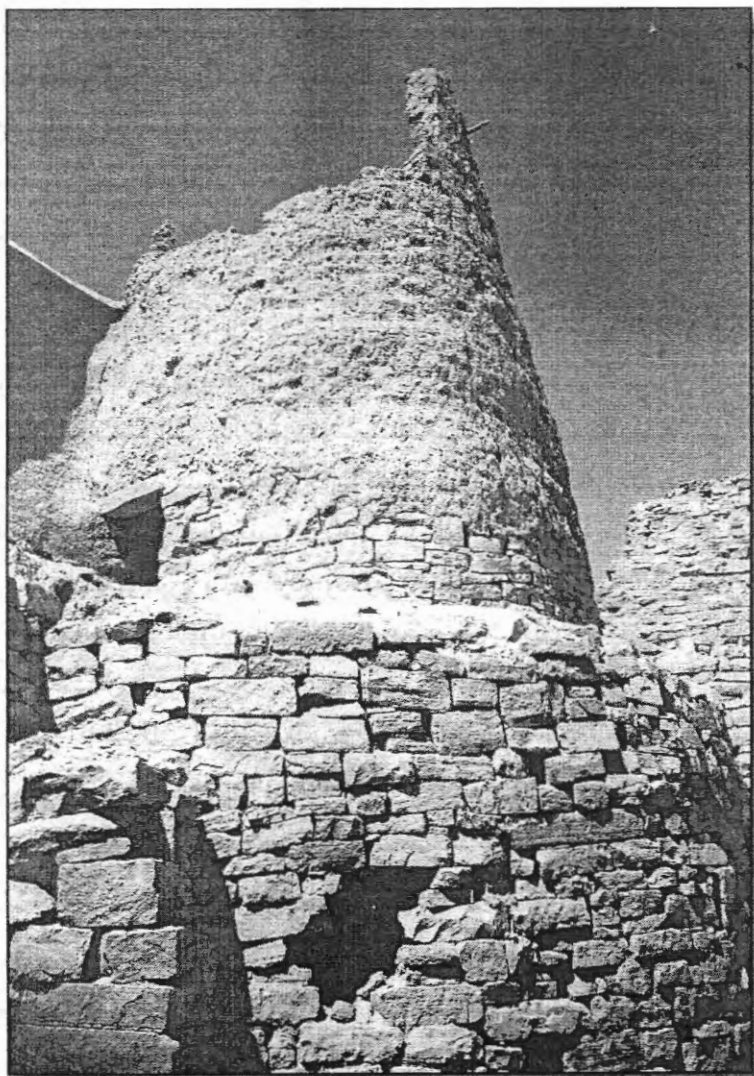
دراماً عريضة عرض صحراء النفود ذات الرمال البيضاء الناعمة، التي تتسلل ذراتها بسهولة إلى العين، لكنها لا تستطيع حجب الرؤية عن المكان الشاسع الذى كان يوماً فى قبضة امرئ القيس وكان يحرثه بجواده وطموحه الذى تجاوز الحدود وجعله متناقض التحالفات وربما كان لقب «الملك الضليل» مثل هذا السبب حيث كانت مصالحه هى الأهم وهى التى تجعله يريق الدماء بنفس السهولة التى نحر بها راحلته ليطعم بها صويحبات عزيزة.

سهولة الدم مثل جريان الشعر فى عروقه كانت ميلاً طبيعياً للاتساق فى عقد الملوك، لكن التاريخ لم يذكر أنه قُدر لمملكة ذلك الشاعر الضليل الاستمرار وإن حفظ لنا تنقلاته الكثيرة التى بدأها من موضعى الدخول وحومل ليستقرها هنا فى دومة الجندل التى نقف عليها الآن خارج المدينة الحديثة فى الفقر المتسع والمتجهة بعض طرقه إلى تيماء تيوك بعدما سالت الأزمنة واختلطت أحداثها بتلك الرمال التى يحتال فيها البرد وتنمو الريح وتختفى العفوية الساخنة مع الظهيرة الغافية فى شتاء الشمال الطويل والذى لا يخلو من جبال شواحق تسكن ذواباتها أقطان الثلوج وأعشاش الجوارح.

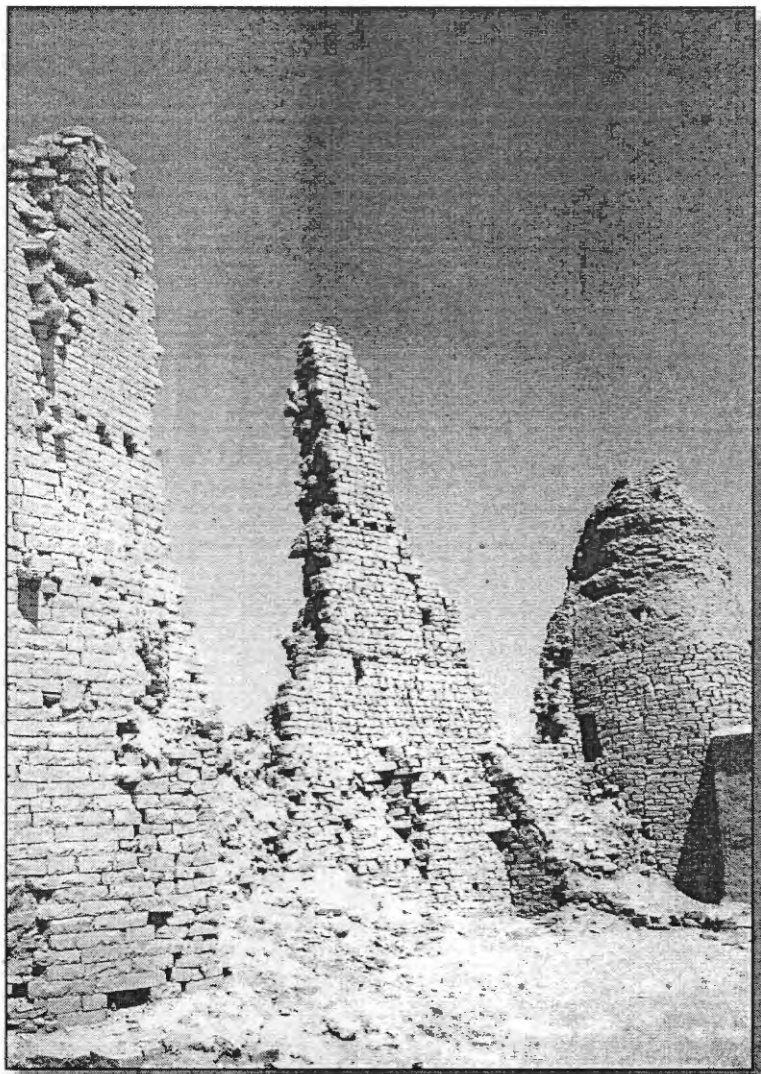
وكانى بنا فى قلب المعلقة «معلقين» ببهاثها الصافى ولغتها العبقريّة وهو يشير الآن إلى المكان صائحاً فى وجوهنا الحديثة المتعبة وأرواحنا المنقرضة:

وَرُحْنَا يَكَادُ الطَّرْفُ يَقْصُرُ دُونَهُ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسْهَلُ
فَبَاتَ عَلَيْهِ سَرْجَةٌ وَلِجَامُءُ وَبَاتَ بَعِينَى قَائِماً غَيْرَ مُرْسَلِ

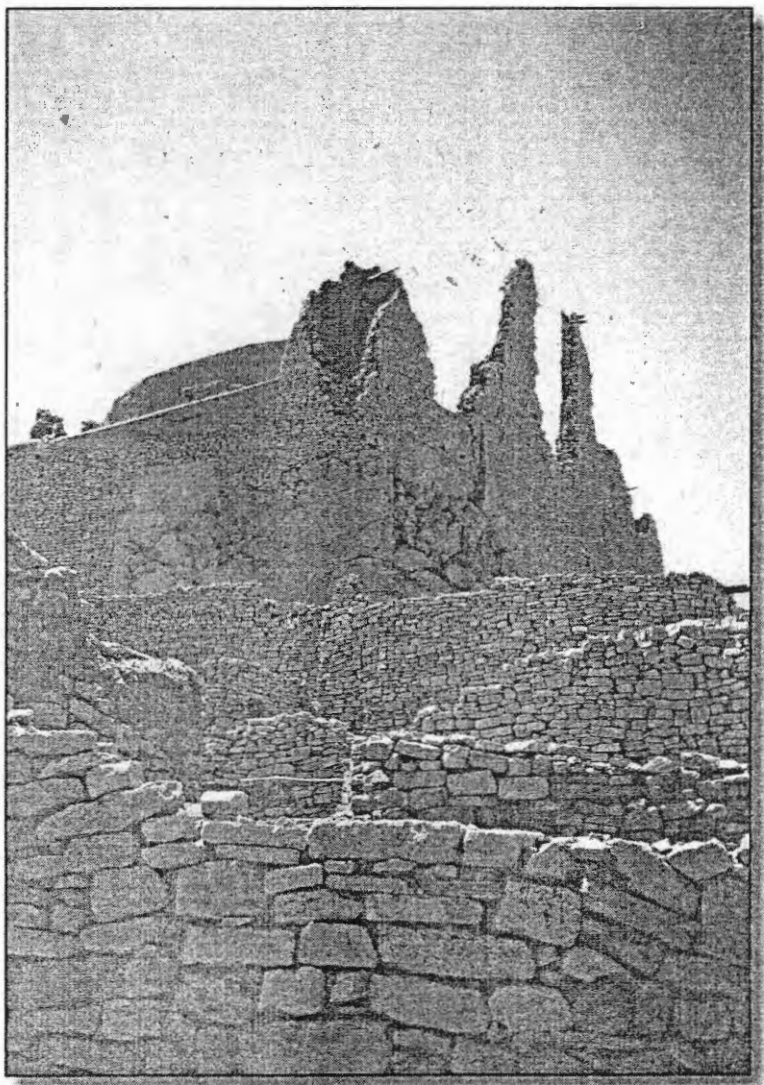
وكان فرسه الخالد «المكر المقر المقبل المدبر معاً» يتظاهر فى هواء الأفق وهو يتهادى بأبطلى ظبى وساقى نعمة وإرخاء سرحان وتثريب تنقل، بينما الريح تعوى بخلود وتكنس بعض الرمال عن الأحجار التى ربما لم تتحرك منذ وطأتها حوافر الفرس.. وأحلام امرئ القيس الضائعة.



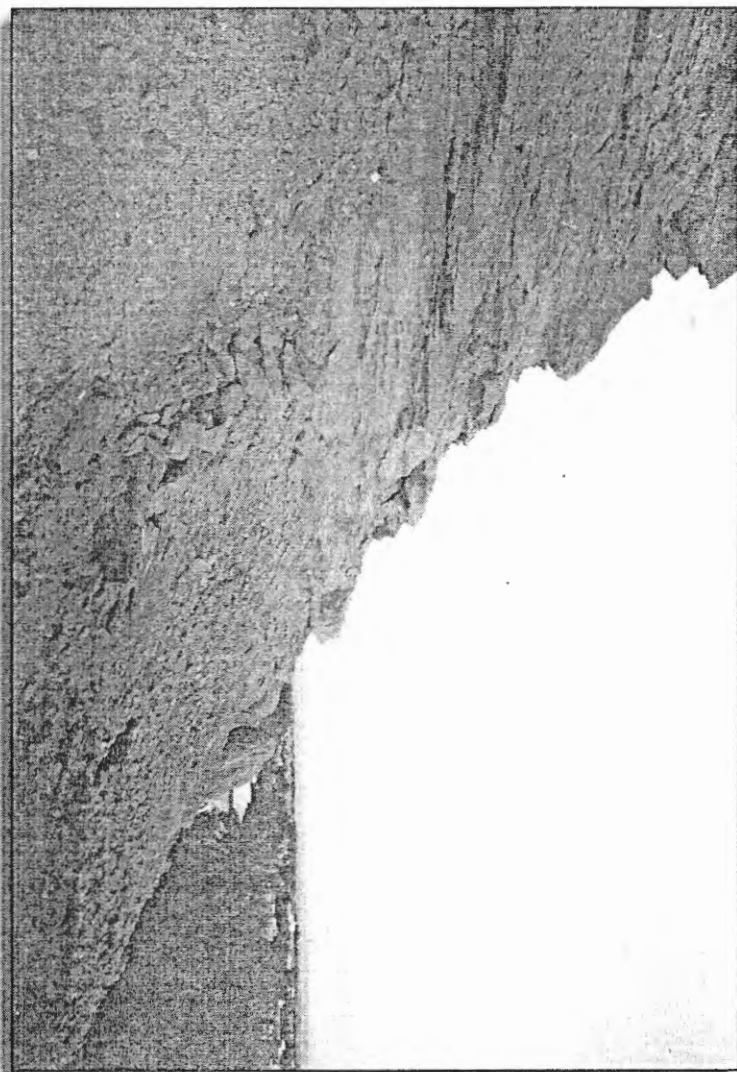
قلعة مارد من مقام حكم امري القيس.



بقايا قلعة مار د بمنطقة الجوف التي مكث فيها امرؤ القيس بعض الوقت.



منظر عام لقلعة مارِد.



دوامة الجنادل حيث لا يزال النخيل متوقفاً بكثرة.